حينا والله حينا آخر مع ان الشاعر لا يذكر أيا منهما عادة . وهو يخاطب الله في معظم قصائده الدينية على شكل محادثة معه ، وهذا يصل احيانا درجة السخرية المهينة ، اذ يسخر الشاعر من ضعف الله او يعجب لعدم تحركه ويصل أحيانا الغضب عليه لانه ينظر نظرة ارتياح الى ضعف الشاعر وهو يتلوى ألما وشعورا بالذنب. ويتساءل الشاعر عن قيمة خلاص الانسان اذا ترك هذا الانسان بلا مساعدة .

ليس معنى ذلك ان الشاعر لا يؤمن بحاجته هو شخصيا للخلاص . بل هو ، على العكس، يشعر نفسه منجرا باستمرار بعيدا عن الله وانه بحاجة الى يد يسوع تنتشله. الا أن هذه اليد الممتدة لا يبدو له انها تمتلك القوة أو الارادة لانتشاله . انه يريد من الله أن يسعى اليه بلا انقطاع وان يحبه بلا فتور . يقول في القصيدة الاولى من مجموعته الشعرية « القصيدة ك » :

أكلما مسمر الوحل قدمي / وشلني الا يدين رفعتهما اليك / تمسمرت وشللت يديك / وطالبتني بالانبثاق بالارتقاء اليك ؟ / أكلما صرخت واستغثت / واكتسبت عطف من حواليك / عطفت لكنما اكتفيت / (يديك اريد يديك) / بتدلية حبل الي ؟

وعلى الرغم من حاجته لمحبة الله وعونه فانه يبحث عن وقت ومكان يكون فيهما حرا من الله وغير مراقب مراقبة دائبة . وهو يرغب في أن يستطيع اغمـــاض عينيه ليرى مشهدا لا يكون الله فيه « منتج الشريط والمخرج والممثل الوحيد » ، على حد قول توفيق.

يؤمن الشاعر بأن الله وهو يحتاج أحدهما الآخر وانهما في خطر السقوط عن الحافة. وهو بأن الله ميت في العصر الحديث بل انه ضعيف وغير قادر على الفعل . وهو يعجب كيف واجه المسيح الصلب بشجاعة ويتخلى الآن عن أتباعه . وفي رباعية بعنوان « أربع أغنيات لأحب » يتوسل الى المسيح ان « ينهض ويمزق الاكفان ويلون الوجنتين ويترك ديار الصقيع » ، ويطلب اليه الا يتركه يصبح ذبيحة اذا كان حقا يريد الرحمة لا الذبيحة. وينتظر مجيء المسيح الذي لا يصل أبدا ويتركه ينتظر :

ووعدتنا رجوعا قريبا كطرفة عين / محملا لنا بالعطايا . / وامتطيت ضاروخا وئيدا لم يختبر بعد ، / وانطلق ، وانطلقت ، واختفيتما / كأن ما كان ما كانا .

...

علينا ان ننتظر ؟ / علينا ان ننتظر .

وينتظر الشاعر « في الغرفة المهجورة » ليأتيه « اللهب الموقظ ، وارتجاف الحمامة »، ينتظر لحظة النشوة الفريدة ليسمع رسول المسيح يقول ان سيده « مغلوب كايانا وفي عوز مثلنا وأسر وصحراء » .

يبدو لتوفيق ان الخلاص مستحيل وهو يعرف انه بحاجة للخلاص . ولكن السماء ، مثل وطن توفيق الضائع فلسطين لا يستطيع العودة اليها طالما هو على ظهر سفينة بلا جواز سفر :

اقتراب ، ولا دخول / وسعي ، ولا وصول : / بدونه لا دخول / ولا تحمله / فلا دخول .

ما هي هذه المرارة التي يعبر عنها الشاعر في قصائده الدينية ؟ هل ملحد ؟ كافر ؟ لو كان كذلك لما اعطى الله أو المسيح معظم نتاجه الشعري . انه المؤمن الذي يشك لانه يريد لايمانه ألا يهتز ، مثل المحب المرتاب لانه يريد حبيبه أكثر صدقا ، أو مثل مقدم على الانتحار يريد العودة الى الحياة بنهم ولذة . يقول في رسالة الى صديقه جبرا بتاريخ ٢٢ تشرين الثاني ١٩٦٠(١٢): « ان من يحمل الصليب ولكن يحب أبا أو أخا أو زوجة أكثر من المسيح فانه لا يحب المسيح . ولا مجال للمساومة » .